

حب العرب

في مناجم الذهب

للعلامة الشيخ عبد القادر المغربي

عضو مجمع اللغة العربية الملكى

(دَرَى) الصيد يدرىه إذا توارى عنه وما زال به حتى أمسكه. فدَرَى هذه بمعنى خَتَلَ. ولها أخت مشهورة بيننا: وهى (دَرَى المسألة) بمعنى علمها وأدركها. وبعضهم جعل (دَرَى) هذه من بَابَةِ (دَرَى) الصيد، فاشتراط فى دراية المسألة الوصول إليها بضرب من الحيلة.

ولم لا أقول فى (أدرك) كما قالوه فى (دَرَى)؟ فيكون إدراك المسألة وتعقلها بعد سعي وجهد. كما أن إدراك الصيد واعتقاله بعد جري وجهد.

ولا تقل أيها القارىء أن (دَرَى) بمعنى (خَتَلَ) لا عهد لنا بها. بلى! فإنا نستعمل حتى فى لغة تخاطبنا أختاً لها: وهى كلمة (دَارَى) من (المفاعلة) وزيد بها أن يُلين الشخص القول لآخر، ويسارع إلى هواه، ويتجنب سخطه، فتستعملها بمعنى الجمالة، وإن كان اشتقاقها فى الأصل يدل على معنى الخديعة والختل.

أما شاهد (دَرَى) الصيد بمعنى خَتَلَ فهو قول الشاعر:

فإن كنت لا أدري الظباء فأنى
أدس لها تحت التراب الدواهي
فالشاعر يريد بقوله (أدري الظباء) أنه يختلها ختلاً إذا أراد اصطيادها، حتى إذا عجز عن ختلها وإمساكها باليد، فإنه يصيدها بالفخاخ والحبال يدسها لها تحت التراب. فالدواهي إنما أراد بها هذه الفخاخ؛ كما أن المراد بالظباء ظباء الوحش. ويبعد أن يكون أراد بها ظباء الانس: أعنى الحسان من النساء بدليل الرواية الأخرى وهى (أدس لها تحت العيضاء المكاوي) و(العيضاء) شجر عظام فى البادية،

تأوى إليها الظباء عند اشتداد الهجير فقبل تحتها. وتعطو إلى أوراقها و(المكاوي) جمع مكواة: آلة الكى المعروفة. وأراد بها هنا الفخاخ نفسها.

ولكلمتى (دَرَى) و(دَارَى) أختان هما (أدْرِى) الصيد من (الافتعال). و(تَدْرِى) الصيد من (التفعل) وكلتاها بمعنى (خَتَلَ) أيضاً.

أما شاهد (أدْرِى) بتشديد الدال. فبيت من الشعر كانا —
ينشده هكذا:

وماذا يبتغى الشعراء منى وقد جاوزت حد الأربعين
وهو السُحيم بن وثيل الرياحى. وصواب الرواية:
وماذا يدْرِى الشعراء منى الخ

(يدْرِى) بتشديد الدال من (أدْرِى) الصيد ختله حتى اصطاده. أى لا يظن الشعراء أنهم قادرون على ختلى وخديعتى بعد أن بلغت سن الكمال والاستحشاف.

هذا شاهد (أدْرِى). أما فعل (تَدْرِى) بتشديد الراء —
(من التفعل) فله شاهد عجب. من أنباء حب العرب، فى معادن الذهب. وهو قول شاعرهم:

(كيف ترانى أدْرِى وأدْرِى
غرائب جمل، وتَدْرِى غيرِى)
على أن هذا البيت شاهد لكل من الفعلين: (أدْرِى) (من الافتعال) و(تَدْرِى) (من التفعل)

أما (أدْرِى) بالذال المعجمة فليست من معنى الختل فى شيء. وإنما هى من تدرية الحب ونحوه فى الهواء. فيذهب القشر والتراب، ويبقى الحب واللباب.

وأصل (أدْرِى) (أدْرِى) من الافتعال. كما أن أصل (أذكر) أى تذكر (إذتكر)، وثلاثيته ناقص واوى: يقال ذَرَا فلان حبَّ يدره. و(ذَرَاه) من التفعيل، فأدْرِى فى بيت الشعر المذكور هو هذا المعنى.

والفعلان الآخران (أدْرِى) و(تَدْرِى) بالدالين المهمتين هما بمعنى خَتَلَ الصيد.

وقائل البيت لم يرد أنه أدْرِى وختل ظبية من ظباء الوحش

وإنما كان غرضه أن يختل ظبية من طلباء الانس وهي (جُمْل) الحسنة. فهو يقول: قد كنتُ أنا و (جُمْل) نعمل في تحصيل الذهب وتنقيته من التراب، وكنتُ أعمل أنا في تدرّيسه وتعريضه لهبوب الريح فيتطاير التراب والشوائب هنا وهناك. وتقع ذرات الذهب وقطعه الصغيرة على الأرض. أما (جُمْل) فلها وظيفة غير وظيفتي: وظيفتها (التحصيل). فأنا (المدرّس) وهي (المحصلة).

قال ابن فارس: أصل معنى التحصيل استخراج الذهب من حجر المعدن.

وقال علماء اللغة: (المحصلة) كحذثة المرأة التي تحصل تراب الذهب أو تراب المعدن. ومعنى تحصيله تخليص الذهب منه. والتحصيل في الذهب كالتصويل في الخطة ونحوها.

وقال ابن برّي: المحصلة هي التي تميز الذهب من الفضة. وجميع أرباب المعاجم لم يذكروا اسم فاعل التحصيل إلا بصيغة المؤنث (المحصلة) ولا يكادون يقولون (المحصل) بالتذكير، إلا على سبيل بيان الاشتقاق القياسي. أما (المحصلة) الأثني فقد أصبح وصفاً غالباً على امرأة ذات عمل خاص بها هو تحصيل الذهب وتنقيته.

ومما يحسن التنبه إليه أن فعل (اذرى) التي هي بمعنى التذرية في قول "شاعر المذكور لم يقل أحد من علماء اللغة أن المراد بها تذرية حب الخطة مثلاً، بل أجمعوا على أن مراد الشاعر تذرية الذهب وتنقيته من التراب فيظهر أن البيت من قصيدة حكى فيها الشاعر حادثة جرت له مع الحسنة (جُمْل) وهما يعملان في معدن (حليّت) على وزان (سكيت) في بلاد نجد أو غيره من مناجم جزيرة العرب التي كثر التحدث عنها في الآونة الأخيرة.

وكما استفدنا من علماء اللغة أن (المحصلات) من المشتقات في المعادن، وأن (التحصيل) من أعمال النساء الخاصة بهن أو الغالبة عليهن — استفدنا ذلك أيضاً من شعراء العرب. فقد قال أحدهم:

ألا رجل جزاه الله خيراً يدلُّ على محصلة تبييت؟
وهذه الدلالة في منزاها تشبه الدلالة في قول الآخر:

يا من يدلُّ عزّاً على عزّاب

وإذا كانت وظيفة المرأة العريضة في معادن الذهب ما ذكرنا، فيكون الحسنة (جُمْل) بينها هي منهمكة في تحصيل الذهب وتخليص شذراته، كان الشاعر الذي قال: (كيف تراني أذرى واذرى الخ) كان يدرّس تراب الذهب ويلعب المندرة أو المنسف يديه، أما عيناه فكانتا تلاعبان عيني (جُمْل)؛ فكان يختل (غراتها) جمع (غرة) أي غفلتها، فإذا غفلت رنا إليها. فيكون بذلك قد ختلها، أي خدعها مذ أوهمها أنه لا ينظر إليها مع أنه ينظر. ولم تكن (جُمْل) بأقل كلفاً وحرصاً على مسارقة النظر، فكانت هي في نوبتها أو في دورها (كما يقولون) (تدرّاه) أي تحتله وتخدعه فتوهمه أنها لا تنظر إليه، ثم تحسّن (غرة) جمع (غرة) أيضاً أي تخفله حتى إذا سحبت لها غرة من غرره نظرت إليه معجبة أو متفرسة إن كان يصلح لها بعللاً أو لا.

ومحصل القول أنه كان للعرب معادن ذهب يجتمعون فيها نساء ورجالاً، أحراراً في عملهم، أو مأجورين لصاحب رأس مال، رومي أو فارسي يشغلهم على حسابه. وإن النساء كان عمالهن التحصيل، أي تنقية ذرات الذهب وشذراته، ينال الرجال الأشداء كانوا يقومون بأعمال أخرى أشق من أعمالهن كالتذرية وتنقيت الصخور بالمعاول ونحو ذلك.

ويظهر من لهج شعرائهم بذكر (المحصلات) أنه كان لهن — من تجمعهن في ذهابهن إلى المعدن وإيابهن، أو من زينهن وشكل لبوسهن، أو من حديثهن ونوع نظرفهن — كان لهن من ذلك حالة خاصة لفتت عيون الشبان إليهن، وحلتهن على ذكرهن وتمنى معاشرتهن.

وهذا كما هو الحال في نساء المعامل وفتيات المخازن في أوروبا اليوم.

المغربي

دمشق